الشيخ عبد الحليم ابن سماية

العالم الرباني الوطني قبْل الحركة الوطنية

"العلم نور الله ... ونور الله لا يهدى لخائن"

د. أحمد قريق احسن | مدير الثقافة الإسلامية بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف

في حلقة من أكثر الحلقات تعقيدا في تاريخ الجزائر المحتلة، كان قرار استخدام الجزائريين من قبل المحتل الفرنسي كجنودٍ للدفاع عن هويةٍ ليست هويتهم، وأرضٍ ليست أرضهم. وتعود فكرة تجنيد الجزائريين إلى السنوات الأولى من الاحتلال. لا تكاد تختفي إلا لتظهر بعد ذلك كالنواس المتأرجح بين مختلف دوائر صناعة سياسة الاحتلال.

وفي آخر المطاف لم يكن الفصل بين مؤيدي ومعارضي التجنيد على قاعدة الثنائيات المتضادة عسكري-مدني، أو على قاعدة الانتماء السياسي يسار-يمين، بل تمت في الأخير من وجهة نظر مصلحة الطرف الفرنسي فقط، ولا حاجة للتذكير بأن المجتمع الجزائري لم يجن منها إلا ضحايا ومحن وأزمات جاءت لتنضاف إلى أزماته السابقة.

فبعد مخاض طويل وجراء الخوف الذي امتلك فرنسا من جارتها ألمانيا التي كانت قوتها في نمو مطرد وتطور مستمر، وبالرغم من وقوف عدد كبير من السياسيين، وعلى رأسهم المحتلين (الكولون) في الجزائر، ضد المشروع، فقد أجمع وزير الدفاع آنذاك أمرَه وأمضى الأمرَ التنفيذي ببدء الإحصاء استعدادا للأمر باستدعاء المجموعات الأولى من الشبان الجزائريين للجندية. وقد كان لهذا الأمر وقعٌ كبير على الجزائريين، إذ لاقته أغلبيتُهم بالرفض التام، إما بالتظاهر أو إرسال العرائض أو حتى بالانتفاضة، باستثناء مجموعة صغيرة ممن اقتنع بفكرة الاندماج وأصبح يدعو لها. مما اضطر الاحتلال إلى اتخاذ خطوة لاحتواء الوضع بالدعوة إلى عقد اجتماعات مع أعيان البلاد، وفي مختلف المناطق، وهو ما حدث في دار البلدية بمدينة الجزائر. وخلافا لغيره من اللقاءات التي نظمت في مختلف المدن والقرى لدينا صورة حية عما تم بمدينة الجزائر فيما لخّصه عمر بن قدور ونشره على شكل مقالٍ في جريدة بالأستانة ومنه أخذنا هذا المقتطف:

"وجهت [الحكومة] لائحة تتضمن تعريف الأهالي بقرب أوان التجنيد ....

في يوم الجمعة 21 يوليو [1911 م]، التأم المجلس البلدي كعادته فقدم رئيسُه لائحة الحكومة لأعضاء المسلمين الستة، والتمس منهم إبداء أفكارهم في المسألة. فأجابهم عميدُهم السيد مصطفى بن الحاج موسى، بموافقة زملائه، بأن خطر هذا المشروع عظيم، وأن الأهالي لا يقبلونه أبدا، ما داموا في الهيئة المنحطة يتخبطون، وأقنع الرئيس بأنه لا يستطيع هو وزملاؤه أن يقدموا للحكومة الرأي الصريح، وأن الرأي العام هو المعوّل عليه في هذا الباب. والتمس منه أن يرجع إلى أعيان العاصمة ويسمع منهم الرأي البات في القبول أو الرفض. فتقرر آنئذ استدعاء أربعين رجلا من أعيان مسلمي العاصمة إلى المجلس البلدي ليُبدوا آراءهم أمام رئيسه بكل صراحة. ولما وقع الاستدعاء، وتسابق المدعوون إلى دار المجلس البلدي في يوم الثلاثاء 25 يوليو [1911م]، ولما التأم جمعُهم في قاعة المفاوضات. دخل رئيس المجلس مسيو دوغلان وجلس في كرسي الرئاسة وافتتح بقوله:

إن الحكومة الفرنسوية رأت الآن أن تحشر أبناء المسلمين المراهقين تحت لوائها الحربي، تنفيذا لمشروع المسيو ميسيمي وزير الحربية. وإنها قد وجهت إلى الوالي العام في هذا الشأن أمرا تحثه فيه على استشارة المجالس البلدية في الأقطار الجزائرية في شأن تنفيذ هذا المشروع، وجس نبض الرأي العام الاسلامي فيه، لتكون الحكومة على بصيرة من أمرها.

ولما أتم شيخ المدينة مقاله، قام الأستاذ العالم العلامة الشيخ عبد الحليم ابن سماية البقية الصالحة والجهبذ الناسك ... وخاطب الجمعَ قائلا: تريدون مني أن أتكلم بالنيابة أم لا تريدون ذلك فأصمت؟ فأجابه الملأ بلسان واحد: تكلم أيها الأستاذ.

فتقدم جنابه وشرع في الكلام شروعا جميلا وأتى على خط مستقيم، واستدل بآيات قرآنية على أن المسلمين إذا أدوا الخدمة العسكرية للدولة الفرنسية لا يكونون مسلمين بجميع معاني الكلمة، ولا نالوا من الحرية ما يخول نبغاءهم التربع في دست رئاسة الجمهورية ودعا جنابه أن الحرية والحقوق السياسية إذا منحت للمسلمين مقابل تجنيدهم تكون هناك الضربة القاضية على القومية الدينية والسياسية إذ يقع اندماجهم بالأمة الفرنسوية نهائيا".

كان بالطبع هذا موقف صريح ضد التجنيد، وهو موقف أغلبية الحاضرين، باستثناء ما يسمى بمجموعة الجزائريين الشباب، وهم الذين يسميهم عمر بن قدور بالمتفرنجين، الذين قاطع أحد زعمائهم الشيخ وخاطب شيخ البلدية قائلا: "إن هذا الرجل قد أسهب في الموضوع على حين أن المسألة لا علاقة لها بفلسفة القرآن، ولكل واحد منا كلام يجب الاهتمام به". وهو بهذا يحاول كسر الإجماع وجلب الانتباه إلى مجموعته التي لها رأي مخالف تماما، راغبا في القضاء على كل الاهتمام الذي حضي به الشيخ ورأيه.

أمام هذه المقاطعة يتبنى الشيخ ردة فعل قوية وحازمة فيها شيء من الاندفاع، كأني به في دور مسرحي في مشهد درامي شديد الانفعال كان لا بد منه لاستعادة زمام المبادرة واستدراك ما فاته جراء المقاطعة. فقال: "إني أتكلم مع رجل عالم، يدري الأمور، ويتبصر فيها، فذروني أتكلم مع جنابه، وإلا فتكلموا أنتم معشر الخُشُب المسنّدة"، ثم بادر وهمَّ بالخروج من القاعة. فاستدرك شيخ البلدية الوضع واستعاد السيطرة على مجريات الأمور فطلب من الشيخ البقاء مظهرا كل الاهتمام بموقفه ورأيه، فمكنه من إتمام كلامه، الذي أجمع الأعيان الحاضرون على الموافقة عليه. وهو ما أكده المفتي الحنفي الشيخ **محمد بوقندورة**. فـ"انتهت المفاوضة بقرار رفض التجنيد سواء بنيل الحقوق السياسية أم لا".

وقد كان لهذا الموقف صدى كبيرًا جدًا لدى المحتلين ولدى الجزائريين على حدٍّ سواء. وهو الموقف الذي جعل الكثير من المؤلفين المعاصرين يصفه بذي النفوذ والمتعصب وحتى المتنكر لأفضال فرنسا، إلخ.

وقد أصبح الشيخ عبد الحليم ابن سماية بإعلانه عن موقفه هذا وبكل وضوح زعيما لهذه الحركة المقاومة. **فمن هو هذا الشيخ؟** وما هي خَلْفِيَته التكوينية والأيديولوجية؟ وما كان مصيره جراء هذا الموقف الخطير؟

ولد الشيخ عبد الحليم بن علي بن عبد الرحمن بن حسن خوجة ابن سماية عام 1866م.

حفظ القرآن الكريم على معلّم الأجيال الشيخ حسن أبي شاشية بجامع بَالرْقِيسَة (ابن الرقيصة) بوسط المدينة العتيقة.

أخذ العربية والفقه والتوحيد، عن أبيه المدرس بجامع سفير، و**محمد القزادري** و**علي بن الحفاف**، و**ابن ظاهر الوتري** المدني، وقدور أباصوم، ومحمد السعيد بن زكري.

ودرس المنطق وعلوم البلاغة على يد الشيخ **طاهر قيطوس**، والشيخ **علي بن الحاج موسى**.

وتعلم الحساب والفرائض على صهره علي **ابن حمودة**، والربع المجيب على الشيخ **أبي القاسم الحفناوي**، و**الأسطرلاب على عريف بك**. كما درس أيضا على الشيخ **محمد المكي ابن عزوز الشهير**.

أما دراسته على الشيخ **محمد بن عيسى الجزائري**، فيروى عنه فيها قصة عجيبة. إذ يقال إنه اشتاق إلى تعلم ما يعرف بالمقولات العشر المنسوبة إلى أرسطو في الفلسفة اليونانية القديمة، والتمس لأجل ذلك أستاذا ماهرا يتعلم عليه فقيل له إن عليه أن يقصد الشيخ محمد ابن عيسى صديق والده والمهاجر إلى تونس، فقصده الشيخ عبد الحليم وأقام عنده في بيته ضيفا معززا مكرما مكبا على الدراسة والتعلم. وعند عودته إلى الجزائر سأله أصدقاؤه: كيف وجدت تونس؟ فقال لهم: سلوا عنها من رآها!

بعد إنهاء تكوينه انطلق في التدريس واشتغل بالتعليم واستمر فيه إلى آخر عمره. وبالموازاة مع ذلك تجدر الإشارة إلى أنه مارس التجارة في فترة شبابه ثم ما فتئ يتخلى عنها. وخلال حياته العملية مارس التدريس كأستاذ في المدرسة الإسلامية الفرنسية ابتداءً من عام 1896م، حيث درّس بالقسم الرابع فيها ألفية ابن مالك بشرح **ابن عقيل** أو شرح **الأشموني** والعِقد الفريد أو نهج البلاغة أو ديوان الحماسة. وبالقسم الخامس درس المفصل **للزمخشري** وشطرا من السُلّم والتلخيص أو دلائل الإعجاز أو أسرار البلاغة. وعندما أُسندت إليه مهمة تدريس التوحيد والتفسير اعتمد في ذلك على الاقتصاد في الاعتقاد للإمام **أبي حامد الغزالي** ورسالة التوحيد للشيخ **محمد عبده**. ومن تلاميذه بها: الروائي **عبد القادر حاج حمو**، وشاعر الجزائر **أحمد الاكحل**، وشيخ ملوك فاس الأستاذ **محمد معمري**، والأستاذ الشهير **أحمد ابن زكري**، واللغوي الكبير **أحمد بن حمودة**، والمفتي **حمدان حمود**، والوطني المغمور **عبد العزيز الزناقي**، وغيرهم.

أما في مساجد العاصمة فقد تولى منصب مدرس بالجامع الجديد يوم 15 أكتوبر 1900م خلفا لأبيه المتقاعد. وفي المساجد درّس العديد من الكتب أوردها تلميذُه الشيخ **عبد الرحمن الجيلالي** الذي درس عليه في الفترة 1924-1927م، ومما أورده بالخصوص تدريسه الفقه الحنفي بالاعتماد على أمهات المذهب كالقدوري والشرنبلالي. أما التفسير فيروي الشيخ الجيلالي أنهم درسوا عليه التفسير بالاعتماد على النسخة الأصلية لتفسير سيدي عبد الرحمن الثعالبي التي أوقفها صاحبُها على مكتبة الجامع الكبير. ومن تلاميذه المسجديين: **عبد الرحمن الجيلالي**، المفتي **عطية المسعودي**، **حمود سطمبولي**، **محمد بن الخوجة الكمال**، الدكتور **محمد بن العربي**.

الشيخ عبد الحليم ابن سماية والشيخ محمد عبده خلال زيارة هذا الأخير لمدينة الجزائر سنة 1903م

ومن ميزات الشيخ أنه قبل وفاته بأيام، واغتناما لشهر رمضان المبارك، طلب منه جماعة من الناس أن يدرسهم رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وهو ما شرع فيه بالفعل وقام به لعدة أيام إلى أن وافته المنية.

وكان الشيخ عبد الحليم أديبا شاعرا ترك عددا من القصائد لعل أهمها بعض المولديات التي وصلتنا. والمولديات كما هو معلوم فن من فنون الشعر موضوعه الأساسي هو مدح سيدنا **رسول اللّه** ﷺ وذكر أخباره وغزواته ومعجزاته ومدح خصاله وشمائله والتذكير بسيرته، وقد اشتهرت مدينة الجزائر بعدد من الشعراء ممن خصص شعره لهذا الفن كالشيخ **محمد بن الشاهد** و**أحمد بن عمار** و**أحمد البابوجي**. وفي هذا الصدد يقول الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: "إن آخر من سار على هذا المنهج الطريف من علماء الجزائر هو الشيخ عبد الحليم ابن سماية رحمه اللّه الذي جاء بموشحه «يا روح سار تعطر»[1]، صبيحة يوم الاحتفال بذكرى المولد بجامع الحاج مصطفى الاكحل، وكان قد نظمه في تلك الليلة. فوضعه بين يدي الباش قصاد محمد بن أحمد بوقندورة المفتي الحنفي آنذاك، فاشتغل هذا الأخير مع جماعة القصادين ووضعوا له ألحانا مناسبة وتمّ إنشاده في ذلك اليوم ودام الاحتفال إلى ما قبل الزوال. ثم انتقل الجمع إلى منزل الشيخ ابن سماية القريب من المسجد وكررت الجماعة إنشاده [2]. ومن ذلك قول الشيخ عبد الحليم في مطلع إحدى قصائده:

سَرَى النَّسِيمُ غِبَّ السَّحَرْ ..*.. مُضَمَّخاً بِالْعَنْبَرِ
لَمْ أَدْرِ نَافِحَ الزَّهَرْ ..*.. أَوْ كَفَّ خَيْرِ الْمَعْشَرِ

بِاللهِ يَا هَذَا النَّسِيمْ ..*.. هَلْ أَنْتَ مِسْكٌ مِنْ قَدِيمْ
أَوْ أَنْتَ أَنْفَاسُ الْكَرِيمْ ..*.. فِيكَ الشِّفَاءُ لِلسَّقِيمْ
أَتَيْتَ بِالْخَيْرِ الْعَظِيمْ ..*.. مِنْ صَفْوِ حَوْضِ الْكَوْثَرِ

وخلف الشيخ عبد الحليم عددا من المؤلفات منها: رسالة اهتزاز الأطواد والربى من مسألة تحليل الربا (مطبوعة)، رسالة الكنز المدفون والسر المكنون (في التصوف، مطبوعة)، رسالة في التوحيد والرد على شبه المبطلين والملحدين (مفقودة)، كتاب فلسفة الإسلام (مفقود). كما كتب مقالات نشرها في صحافة عصره. وله قصائد منها قصيدة يمدح فيها الشيخ سيدي **أحمد التجاني**.

صفحة من قصيدة مولدية للشيخ – مخطوط خاص

ومما سجل له التاريخ استقباله لكل من شيخ الأزهر **محمد عبده** عند زيارته للجزائر عام 1903م، والشيخ **محمد الخضر حسين** عام 1904م.

أما وطنيته فلا غبار عليها وكان شديد المراس لا يخاف في اللّه لومة لائم صادحا بالحق جريئا به في وقت قل فيه من يفكر في الحق فما بالك بمن يدافع عنه. فكان بمواقفه تلك الوطني قبل ميلاد الحركة الوطنية، وله في ذلك مواقف ومشاهد يتذكرها الجزائريون إلى يوم الناس هذا.

أما ما ناله من عذاب جراء نشاطه الوطني فقد أدى به إلى التظاهر بالجنون للحفاظ على حياته، وهو ما لم يجنبه التعنيف اللفظي والجسدي والحبس في مراكز الشرطة والعزلة الاجتماعية.

ولكنه ككل صاحب رسالة واصل نضاله وأتم رسالته التعليمية إلى آخر لحظة من حياته، فلفظ أنفاسه الأخيرة يوم 4 جانفي 1933 عن عمر 67 سنة ودفن بمقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي.

هذا هو الشيخ عبد الحليم بن علي **ابن سماية** العالم المفكر الفقيه المفسر الأديب الشاعر الصوفي الصحفي الإمام المدرس رائد الإصلاح والوطنية رحمه اللّه وعفا عنه وطيب ثراه.

لقد كان بمواقفه الوطنية استمرارا وهمزة وصل بين المدرسة الوطنية الجزائرية القديمة التي تخرج منها علماء مقاومون **كالأمير عبد القادر**، و**ابن الاحرش**، والشيخ **الحداد**، وبين المدرسة الوطنية الجزائرية الحديثة التي تخرج منها علماء وطنيون كالعلامة **ابن باديس**، و**العربي التبسي**، والشيخ **الطاهر آيت علجت** حفظه اللّه. فهذا هو العالم لا يسعه إلا أن يكون وطنيا ينافح عن وطنه ويضحّي من أجل خير مجتمعه.

أما من سقط في امتحان الوطنية ووقع في فخ الخيانة فقد لفظه التاريخ وتجاهلت ذكره الأجيال وصار علمه شاهدا عليه لا له.

صورة جنازة الشيخ كما جاءت في احدى المجلات المعاصرة.

(1) نشرت في العدد التجريبي الذي سبق هذا العدد من مجلة العصر. (هيئة التحرير)
(2) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 4/ 179-180.